الرحلة القطبية

قضي على سكوت الرحالة القطبي ودفنت رفاتهُ ورفات رفاقهِ حيث تبرّد ثرام الثلوج الدائمة على مر الايام والاعوام ولكن ما كتبهُ عن رحلتهِ وصل سالماً ووصلت معهُ صورهُ وصور رفاقهِ في حلهم وترحالهم. « تمضي الحقائق والرسوم تقيم » . وقد جعلت اندية السينماتوغراف تعرضها في اقطار المسكونة حتى كأن تلك الرحلة كانت لاجل تلك الصور . رأيناها في هذه العاصمة وفيها من المدهشات ما يستوقف النظر ولاسيما حيث ترى الحيوانات البحرية تزحف على الثلج وتخوض في المياه وتسرح وتمرح « وريعان الصبا يستفزها وتأرن احياناً كما يأرن المهر » . ولكن في الرحلة اموراً اغرب ومخاطر مهما بالغ واضعو القصص في الاختراع لم يأتوا باعجب منها

قال المستر ليونرد هكسلي ابن المرحوم الاستاذ هكسلي الشهيران سكوت لم يقصد من رحلتهِ ان يبلغ القطب الجنوبي قبل غيرهِ مع انهُ كان يتمنى ان يكون لهُ السبق اليهِ او كان واثقاً انهُ سيكون السابق ولكن المعدات التي اعدّها لرحلتهِ كان يقصد منها اكتشاف كل ما يمكن اكتشافهُ من الامور العلمية التي توسّع معارف الناس سواء تمكّن من الوصول الى القطب او لم يتمكّن . فكان يقصد ان يعرف ماهية الجبال التي في تلك الاصقاع وتاريخها الجيولوجي وما يتعلّق بالبراكين التي هناك والعصر الجليدي في حاضرهِ وماضيهِ وكل ما يمكن ان يعلم من اختلاف الحر والبرد وضغط الهواء ومجاريهِ والكهربائية الجوية والمغنطيسية وتكوّن الجليد وحركاتهِ وطبائع الحيوانات التي تعيش هناك والحلميات التي تعيش عليها . ولذلك تألفت بعثتهُ من العلماء واخذت معها كل ما يلزم لها من الآلات والادوات الرياضية والفلكية والبيولوجية واستعانت لنقل امتعتها على الجليد بالكلاب والخيول الصغيرة القد والمزالق الموطرية [1] ونحو ذلك مما يطول شرحهُ

لكن هذه الرحلة كانت محفوفة بالمتاعب والمخاطر من اولها فلم تكد السفينة واسمها تِرّا نوفا تقلع بمن فيها في اول دسمبر سنة ١٩١٠ حتى ثارت العواصف واشتدّت الانواء وعلت الامواج وانصبّت على ظهر السفينة وعبثت بما هنالك من صناديق البترول واكياس الفحم وحزم العلف وكلها من اللوازم اللوازم . فعانى الرجال اشد المشاق في تخليصها ونقلها الى اماكن امينة واعملوا

(١) لا نرى لنا مناصاً من تعريب كلمة موطر Moter او Moteur كما عربنا كلمة مكروب وهي لحسن الحظ منطبقة على الاوزان العربية ويسهل استعمالها اسماً وفعلاً ومعناها الآلة التي تحرك بمحرك داخلي فيها

المضخات لرفع المياه من السفينة لكن المضخات غصَّت ووقفت عن العمل فدخلت المياه الى بيت الآلة البخارية واحاطت بالمرجل فسخنت وصار يعسر لمسها واضطرَّ الرجال ان يستعملوا الادلي وصاروا كمن يحاول تفريغ البحر بالصدفة ولكن الصبر والجلد يغلبان كل المصاعب فواظب بعضهم على نزح المياه بالدلاء واحتال البعض الآخر على الطلبا الكبيرة حتى وصلوا اليها واصلحوها وتمكَّنوا بعد اللتيا والتي من نزح المياه كلها وتخليص السفينة من الغرق. كل ذلك ولم تفارقهم بهجتهم ولا خامرهم شيءٌ من اليأس ولم يخسروا في هذا النوء الا فرسين وكلبًا و٦٥ جالونًا من البترول وصندوقًا من السبيرتو

وتكررت الانواء والعواصف الى ان بلغت السفينة بحرًا متجمدًا ودخل عام ١٩١١ بيوم من ابدع الايام يوم يستطيع فيهِ الانسان ان يقف في الشمس الساعة الحادية عشرة ليلاً(٢). وفي اليوم التالي شاهد سكوت ورفاقهُ بركان اربيوس على مئة وخمسين ميلاً منهم والنار تتأجج فيهِ وهو قائم في جزيرة كبيرة مثلثة الشكل طول كل جانب من جوانبها الثلاثة ٤٠ الى ٤٥ ميلاً فنزلوا عند رأس من رؤوسها وهو رأس ايثانس واقاموا هناك كوخًا كبيرًا نقلوا اليهِ كل ما معهم من الامتعة والادوات والاقوات لكن الجليد الذي كان يغطي البحر بين السفينة والراس لم يلبث ان تشقق ووقع موطر من مواطرهم في شق منهُ وغاص في البحر

واجتمعت الحيتان حول السفينة وهي من النوع المعروف بالقتَّال (انظروا وصفهُ في الصفحة ٤٦٠ من المجلد ٣٨ من المقتطف) من كبيرة وصغيرة وكان سبب اجتماعها انها رأت الكلاب على الثلج المتصل بالسفينة فارادت افتراسها واقبل المصور الشمسي بآلتهِ ليصورها واذا بالجليد قد تكسَّر تحت قدميهِ وجعلت تلك الحيتان تخرج رؤوسها من كسره وهي التي كسَّرتهُ بسباحتها تحتهُ وضربها اياهُ بظهورها مع ان سمكهُ كان قدمين ونصف قدم. ولحسن الحظ بقيت الكلاب على قطعة كبيرة من الجليد فلم تسقط في الماء. ورؤوس هذه الحيتان كبيرة وعيونها صغيرة واشداقها واسعة وفيها اسنان كالخناجر لا اكبر منها بين اسنان الوحوش. والظاهر انهُ أُسقط في يدها لما رأت انها لم تنل من الكلاب ولا من المصور مأربًا فعادت ادراجها. وأُنقذ المصور والكلاب وصناديق البترول التي كانت قد انزلت ووضعت على الجليد

(٢) لان الشمس تدور حول الافق اياماً ولا تغيب او تذهب وقتًا قصيرًا ثم تشرق

ومضت اشهر الخريف الثلاثة من اواخر يناير الى اواسط ابريل ورجال سكوت يقيمون المستودعات للزاد في طريقهم واول مستودع منها عند رأس ارميتاج على الطرف المقابل لراس ايفانس . وكان لا بدّ من الوصول اليهِ على الجليد الطافي على وجه الماء لان ساحل الجزيرة هناك عالٍ جدًّا يتعذر الصعود عليهِ والجليد الذي يغطي البحر عرضة للانكسار في كل لحظة وبعدهُ نهر من الجليد منحدر من جبل اربيوس وطاعن في البحر ولا بدّ من الوصول اليهِ لانهُ مرقاة يرقى بها الى ما فوقهُ فوصلوا ونقلوا ما معهم من الزاد والمتاع والخيل والكلاب الى الحاجز وهو سهل مرتفع جدًّا يغطيهِ الجليد على مدار السنة ويمتد الى القطب . وكان الرجال اثني عشر والخيول ثمانية والكلاب ٢٦ ومعهم من الزاد والامتعة ما ثقلهُ ثمانية اطنان فاختاروا بقعة تبعد اربعة عشر ميلاً عن موقف السفينة واقاموا فيها مستودعًا كبيرًا وسموهُ مستودع الامان وهو المخيم الثالث بعد السفينة ونقلوا اليهِ امتعتهم وزادهم وكان النقل بمزالق تجرها الخيل والكلاب . ويظهر من الصور المتحركة التي عرضت بالسينماتوغراف ان اختيار الكلاب والخيل للنقل لم يكن من الحكمة في شيء وانها اتعبت سواقها تعبًا غير قليل . اما سكوت فيقول في تقريرهِ انها كانت تجرُّ الاثقال على ما يرام ولم يشذَّ الاَّ القليل منها . لكنهُ ذكر مرة بعد اخرى ما كان يعتريها من الجزع فتجفل وتشرد لاقل سبب لا تلوي على احد ولعلَّ المصور كان ينتبه لها حينئذٍ ويصورها وهي تتجاذب وترتمح

قال سكوت « وكان اثنان من الكلاب قد ربيا على ان يثبا كلَّ غريب ويهجما عليهِ فلا يأنسان الاَّ بالذي يسوقهما ويثبان كل احد غيرهُ . واتفق اني اشرت مرة الى سائقهما ليقف فهجم احدهما عليَّ وعقرني في ساقي ولو لم يكن السائق هناك لتبعتهُ الكلاب كلها واوقعت بي لان الجوع كافر ولاسيما في الكلاب ولا اشرس من الكلب الجائع »

وكانت تلك الكلاب تسير بانتظام وهي مقرونة الى المزالق لكنها تتخاصم وتتهارش لاقل سبب والطبع غلاَّب . واتفق مرة ان فرسًا من الافراس زلق وكان متعبًا فسقط على الارض ولما رأتهُ هجمت عليهِ وجعلت تنهشهُ وهو يعضها ويرفسها واسرع الرجال اليها بعصيهم فكسروها عليها قبلما ابعدوها عنهُ

واستمروا يقيمون المستودعات في طريقهم وينقلون اليها بعض زادهم ثم يعودون وينقلون غيرهُ الى ما امامهُ . وكان الجليد في طريقهم صلبًا في بعض الاماكن ورقيقًا متخلخلاً في غيرها فيسهل عليهم السير تارةً ويعسر اخرى وكانوا يرون كل يوم من العقبات ما ليس في الحسبان لتقلب احوال الجو وصادفهم في الطريق نوءٌ ثلج من اشد الانواء واخيرًا وصلوا

الى آخر مستودع ووضعوا فيهِ ما يكفي اربعة رجال وخيلهم وكلابهم سبعة اسابيع

وكانوا يسيرون ليلاً وينامون نهاراً لان الجليد يزيد صلابة في الليل فيسهل السير عليهِ والبرد يشتد حينئذٍ فيدفأون بالحركة واما في النهار فيقل البرد نوعاً فلا يخافون ان يهرأهم اذا ناموا وقد وصف سكوت حلهم وارتحالهم قال ما خلاصتهُ : —

كنا نخرج من الأكياس التي ننام فيها الساعة التاسعة بعد الظهر وبعد ساعتين ونصف ساعة نكون قد تهيأنا للسفر فرفعنا امتعتنا وقرنّا الخيل والكلاب الى مزالقها واخذنا في سيرنا من غير توقف الاَّ اذا زلق احد الخيول وسقط فنقف لنقيمهُ . ونستريح ساعة في منتصف المرحلة ثم نعود الى السير الى ان تنتهي فنقف ونضع اثقالنا وننصب خيامنا ونسخن طعامنا ونقيم سوراً لخيلنا من الثلج يقيها من عصف الرياح

ولما وصلوا الى أبعد مستودع ووضعوا فيهِ زادهم عادوا ادراجهم ليجلبوا زاد الطريق ورأوا ان يفترقوا فيذهب المسرعون وحدهم والمبطئون وحدهم لان خيلهم وكلابهم لم تكن على درجة واحدة من السرعة . وكان سكوت وثلاثة من رفاقهِ من المسرعين وقبلما وصلوا الى مستودع الامان بليلة كثر الضباب وقلَّ النور رويداً رويداً حتى تعذرت عليهم رؤية طريقهم . قال سكوت وبينما نحن سائرون مسرعين صرخ ولس (احد رجالهِ) قائلاً امسكوا المزلقة فاسرعت اليها ولم ارَ شيئاً وكان يجرها ١٤ كلباً ولم يكن الاَّ خمس دقائق حتى سقطت الكلاب في هوَّة فان الثلج انقدَّ تحتها الى هوَّة عميقة جدًّا وكان الكلب المقدم كبيراً قويًّا فامسك بالثلج بيديهِ ورجليهِ ولم يسقط معها وبقيت المزلقة على الثلج على حافة الهوة . واتضح لنا حينئذٍ اننا كنا سائرين على شفا جرف هارٍ ولولا قليل لسقطنا كلنا في تلك الهوة فابعدنا المزلقة عن الحافة واوثقناها بمرساة والتفتنا لنرى ما حدث للكلاب فرأيناها معلقة في الهواء بالسيور التي كانت مربوطة بها وقد انفك اثنان من سيورها ووقعا على جرف آخر في قاع الهوَّة واما الكلاب الباقية فكانت لا تزال معلقة بسيورها في الهواء وهي تزعق وتحاول الافلات وكان معنا حبل معقد وهو المعروف بسلم حبال الالب وكنت قد سألت عنهُ قبلما اخذنا في السير نطلبتهُ حينئذٍ وفككنا المزلقة وابعدناها عن موقع الخطر هي واكياس النوم والخيمة والموقد . وكانت الهوَّة شقًّا في الجليد غير واسع فوضعت عمودي الخيمة على حافتيها من جانب الى جانب وكان الحبل قد حزَّ في الجليد والصق الكلب المقدَّم بما تحتهُ حتى كاد يقتلهُ فتمكنا من رفعهِ قليلاً وفككنا الكلب واطلقناهُ . ثم ربطنا الحبل بالسلَّم الالبي وجعلنا نحاول انتشال بقية الكلاب فانتشلنا كلباً واحداً وتعذَّر علينا

انتشال البقية فبسطنا المزلقة فوق الهوة وامسك واحد منا بمرساتها لكي لا تفلت ورابطنا السلّم الآلي بالحبل الذي كانت الكلاب معلقة به وجعلنا ننتشلها اثنين اثنين وتفكهامن رباطها وكاد يتعذّر علينا انتشال الكلاب الاخيرة لانها كانت قد اندفعت الى تحت حافة الجليد فانقذنا احد عشر كلباً وبقي الاثنان اللذان افلتا من سيورها وكان طول السلّم تسعين قدماً فادليناهُ الى ان وصل الى الجرف الاسفل فاذا عمقهُ تحتنا ٦٥ قدماً فربطت انشوطة في الحبل وامسكت بها وجعلت الرجال يدلونني الى ان وصلت الى الجرف الاسفل فامسكت الكلبين وربطتهما فانتشلها الرجال واحداً بعد الآخر . وكانت الكلاب التي انقذت قد افلتت وعادت الى المزلقة الثانية وجعلت تتهارش هي وكلابها فاضطرّ الرجال ان يتركوني ويسرعوا اليها ليفصلوا بينها لكنهم عادوا اليَّ مسرعين وانتشلوني وانا لا اصدق بالنجاة . وقد اقتضى تخليص الكلاب على هذه الصورة نحو ساعتين

وتحوّل سكوت ورفاقهُ عن ذلك الطريق لاتساع الشقوق فيهِ وعادوا الى الطريق الذي ذهبوا فيهِ اولاً لان شقوق الجليد فيهِ اضيق ووصلوا مخيم الامان في ٢٢ فبراير فوجدوا ايڤانس ورجالهُ قد سبقوهم اليهِ ومعهم فرس واحد واما الفرسان الاخران فكانا قد ماتا من شدّة البرد وعصف الثلج

وعاد احد رفاقهم حينئذٍ واخبرهم انهُ رأى امندسن في خليج الحيتان وهو اقرب الى القطب من آخر محطة وصل سكوت اليها بمئة وستة وعشرين ميلاً ومعهُ كلاب كثيرة وهو على اهبة الاسراع الى القطب ومسيره اليهِ قبلما تصير خيولهم قادرة على السير . قال المستر هكسلي ولو كان سكوت ورجالهُ من صغار الاحلام لتركوا ما هم فيهِ من البحث العلمي واخذوا كلابهم واسرعوا الى القطب حتى لا يدعوا امندسن يسبقهم اليهِ اما هم فكان لهم اغراض اسمى ولذلك لم يبالوا بما سمعوا . واشتدّ البرد حينئذٍ وخيف ان يودي ببقية الخيل فرأى سكوت ورجالهُ ان لا بدّ لهم من العودة الى المكان المسمّى هت بوينت عند الطرف الشمالي الشرقي من الحاجز والوصول اليهِ شديد المشقة فاذا مشوا على الحاجز فالبرد فيهِ فوق الطاقة واذا ساروا على الجليد الذي يغطي البحر ففيهِ شقوق كثيرة يخشى السقوط فيها . وكان بين طرف الحاجز وهت بوينت خمسة اميال فلما وصلوا اليها وجدوها مغطاة بكسر الجليد وكان بعض رفاقهم قد سبقوهم بالخيل والكلاب فلم يقفوا لهم على اثر فداروا ليسيروا فوق جليد الحاجز واذا الشقوق قد بدأت بينهم وبينهُ فابعدوا عنها . وكان رفاقهم الذين اتقدموهم قد ساروا امامهم فوق الجليد الذي يغطي البحر فظهرت الشقوق في طريقهم وكانوا يعبرون فوقها بمشقة عظيمة

الى ان وصلوا الى شق كبير واذا بالجليد الذي امامهم قد انفصل وجعل يسير فعادوا ادراجهم ولكنهم رأوا ان الجليد الذي كانوا عليهِ قد اخذ يسير بهم ايضاً فاسرعوا الى الشق الذي يفصل بينهُ وبين ما يليهِ قبلما يتسع ووثبوا فوقهُ هم والخيل والمزالق فنجوا ولكن بعد مشقة عظيمة وكان التعب قد انهكهم فنصبوا خيمتهم وانطرحوا فيها كالقتلى وغلب عليهم النعاس فناموا وبينما هم نيام سمعوا صوتاً شديداً ايقظهم فان الجليد الذي كانوا نازلين عليهِ انقدَّ ايضاً حيث نصبوا خيمتهم وغار قرس من خيلهم في الشق واحاط بهم الماء من كل ناحية فنهضوا حالاً وجمعوا امتعتهم وجعلوا يثبون من قطعة جليد الى قطعة اخرى هم وخيولهم واحمالهم وظلوا كذلك خمس ساعات اشرفوا فيها على الهلاك مراراً وهم يظنون انهم لو تخطوا كل قطع الجليد ووصلوا الى الحاجز لتعذر عليهم تسلقهُ لارتفاع جدارهِ على ساحل البحر. وكانت الحيتان القتّالة تخوض البحر حولهم تحاول اقتراسهم ومع ذلك كلهِ لم تحز عزائمهم لانهم كانوا يعلمون ان نجاح البعثة في عملها متوقف عليهم فاذا فشلوا عادت بالفشل . واخيراً تبرَّع واحد منهم ان يخاطر بنفسهِ ويثب الى الحاجز ويفتش عن رفاقهم ليأتوا لمعونتهم ففعل وثب من قطعة جليد الى اخرى الى ان وصل الى قطعة التصقت حينئذٍ بالحاجز فوثب اليها وتسلق الحاجز ووصل الى سكوت ورفاقهِ واخبرهم بما حلَّ برفيقيهِ فاسرعوا لاغاثتهما ومعهم السلم الالمي فنجوهما وانقذوا فرساً من الافراس الثلاثة ولكن بعد تعب يفوق الوصف مدة ثلاثة ايام

لهذه المشاق بل هذه الارزاء تثبط العزائم ولذلك صدق سكوت في ما كتبهُ في يوميتهِ حيث قال ان فشلنا لم يكن لاننا اخطأنا في تدبير امورنا بل لانهُ نزلت بنا نوازل لم تكن منتظرة قاولاً نقدنا دواب النقل في مارس سنة ١٩١١ فاضطررت ان أؤخر سفرنا وان اقلل المؤونة التي اخذناها معنا وثانياً اشتدَّ البرد وثارت العواصف كل مدة السفر ولاسيما حينما كنا عند الدرجة ٨٣ . وقد قاومنا هذه العوائق بهمة ونشاط وتغلبنا عليها ولكنها قللت مؤونتنا ولولا مصيبة اخرى حلت بنا لوصلنا الى القطب ورجعنا منهُ ومعنا زاد كاف لاننا كنا قد استعددنا لهذه الطوارىء . ثم شرح هذه المصيبة كما ترى في ما كتبناهُ عنهُ في صدر مقتطف مارس الماضي